



« اللغة العربية: الجذع المشترك آداب وعلوم إنسانية » دروس النصوص : الدورة الثانية « شعر الوصف - مدخل مفاهيمي

مفهوم الوصف

الوصف نقل المشاهد والحالات، والتقاط المدركات كما تنعكس على عدسة الوعي ومرآة الانفعال، وتصوير لمختلف مظاهر الحياة في سكونها وتقلباتها، والطبيعة في تجلياتها وتحولاتها، إنه إعادة تركيب فني لما تجذب إليه الحواس، وينطبع على المشاعر استحسانا واستهجانا واستنساها واستيحاشا، وصياغة جديدة لجزيئاته الدالة داخل اللغة. وكل خطاب وصفي يستدعي واصفا وموصوفا وأداة للوصف (اللغة) ومرجعية قد تكون الحس أو الوجدان أو هما معا

الوصف غرض من أغرض الشعر العربي القديم والحديث على السواء، وموضوع أساسي من موضوعات القصيدة العمودية المتعددة الأغراض، ويطال كل ما تقع عليه الحواس وتنفع به النفس من إنسان أو حيوان أو طبيعة أو مواقف أو أحداث أو مظاهر حضارة أو غيرها، حتى إنه ليخترق حدود الأغراض الأخرى التي لا تعدو في نظر الكثير من الباحثين أن تكون وصفا بشكل ما.

أنواع الوصف

يبرز من بين أنواع الوصف المتعددة نوعان:

- نوع حسي: ينقل صورة الموصوف بأبعاده المادية، فهو محاكاة للواقع أو إعادة تشكيل لغوي جميل لهذه الصورة.
- نوعا وجداني رؤيوي يرصد صورة الموصوف من خلال انطباعاتها في نفس المبدع، وهو مجال خصبا للابتكار والتخيل والفيض العاطف.

شعر الوصف

شعر الوصف هو شعرٌ يقوم على وصف الأشياء والأشخاص لجعل القارئ يستحضرهم كما هم عليه في الحقيقة عندما يقرأ شعر الوصف.

الوصف ليس موضوعا قائما بذاته لأنه يتناول في المدح والثناء والهجاء وغيرها من أغراض الشعر كالغزل ووصف الخيل والصحراء والليل والمطر الخ وسنواصل اليوم في شعر الوصف ونبدأ بوصف الخمر التي هي أم الكبائر أعاذنا الله من جميع المكروهات فضلا عن غيرها.

فالخمر لغة الستر ومنه سمي الخمار لستره للرأس وبعض الوجه ، ومنه سميت الخمر لمخامرتها للعقل لأنها تغطيه وتغيبه كما يفعل الخمار والستر بمن لبسهما وقد استعير هذا الاسم لما تخمر من نقيع التمر أو العنب) ثمرة شجرة الكرم(لأن من شرب من هذا النقيع ذهب عن حسه وإدراكه فسموها خمرا وقد كانت كثيرة الأنواع وقد وصفها العرب وتغنوا بها في أشعارهم على سبيل الحقيقة والمجاز لأنها مظهرا من مظاهر الفتوة والكرم والميسرة عندهم ومن الترف وقد جاء الإسلام وبين أن للخمر أضرارا بالغة على كل شارب، وأنها تفتك بجسمه بعد ذهابها بعقله وقد جاء تحريمها متدرجا لحكمة لا يعلمها إلا المشرع وكان آخرها آية التحريم الجازمة : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) 82، 83 من سورة المائدة.

ونبدأ وصف الخمر في الشعر الجاهلي ونبدأ بلبيد بن ربيعة العامري الصحابي المخضرم في وصفها زمن الجاهلية حيث يقول:

كِرَامٌ إِذَانَابُ التَّجَالِذَةِ ۞ ۞ ۞ مَخَارِيْقُ لَا يَرْجُونَ لِلْخَمْرِوَإِغْلَا

إِذْشَرِبُواصَدَّوَالْعَوَاذِلَ عَنْهُمْ ۞ ۞ ۞ وَكَانُوا قَدِيمًايُسَكِّتُونَ الْعَوَاذِلَا

وقال عنتر بن شداد العبسي من الشعراء الستة :

كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ قَطَعْنَا فِيكَ صَالِحًا ۞ ۞ ۞ رَغِيدَةَ صَفْوَاهَا مَا شَابَهُ كَدْرُ
مَعَ فِتْيَةٍ تَتَعَاطَى الْكَأْسَ مُتْرَعَةً ۞ ۞ ۞ مِنْ خَمْرَةٍ كَلْهَيْبِ النَّارِ تَزْدَهُ
تُدِيرُهَا مِنْ بَنَاتِ الْعَرَبِ جَارِيَةً ۞ ۞ ۞ رَشِيقَةَ الْقَدِّ فِي أَجْفَانِهَا حَوْزُ

وللبيد رضي الله عنه فيها:

وَإِنْ طَرِبَ الرَّجَالُ بِشُرْبِ خَمْرٍ ۞ ۞ ۞ وَغَيْبَ رُشْدَهُمْ خَمْرُ الدِّنَارِ
فَرُشْدِي لَا يُغَيِّرُهُ مُدَامٌ ۞ ۞ ۞ وَلَا أَصْفِي لِقَهْقَهَةَ الْقِنَانِي

فتراه يذكرها ويمتدحها ويذكر ساقياها في الأبيات الأولى في وصف قوم يغلون فيها ويبذلون أموالهم وفي هذه الأبيات نراه لا يهتم بشؤونها وحالاتها وأرهاصها التي تحدث لشاربها كما هو واضح.

يقول الملك الضليل المعروف بامرئ القيس بن حجر الكندي في الخمر يصفها:

أَحَارِبُنْ عَمْرُوكَ أَتِي خَمْرٌ ۞ ۞ ۞ وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتِمُرُ
لَا وَأَبِيكَ ابْنَةَ الْعَمَامِرِ ۞ ۞ ۞ لَا يَدْعِي الْقَوْمُ أَنِّي أُفْرُ
تَمِيمُ ابْنُ مُرْوَاضِ بِيَاغِهَا ۞ ۞ ۞ وَكِنْدَةُ حَوْلِي جَمِيعاً صُبْرُ
إِذَا رَكِبُوا الْخَيْلَ وَاسْتَلَمُوا ۞ ۞ ۞ تَحَرَّقَتِ الْأَرْضُ وَالْيَوْمُ قَرُ

ويقول أيضا في قصيدته التي مطلعها:

لَقِنَ الدِّيَارَ غَشِيَتْهَا بِسُحَامٍ ۞ ۞ ۞ فَعَمَائَتَيْنِ فَهَضْبُ نِي أَفْدَامِ

الي أن يقول :

فَظَلَلْتُ فِي دِمَنِ الدِّيَارِ كَأَنِّي ۞ ۞ ۞ نَشْوَانُ بَاكِرَةَ صَبُوحِ مُدَامِ
أَنْفِ كَلُونِ دَمِ الْعَزَالِ مُعْتَقِ ۞ ۞ ۞ مِنْ خَمْرِ عَائَةَ أَوْ كُرُومِ شَبَامِ
وَكَأَنَّ شَارِبَهَا أَصَابَ لِسَانَهُ ۞ ۞ ۞ مَوْمٌ يَخَالِظُ جِسْمَهُ بِسَقَامِ

وقد أبدع في وصف نوعيتها وعتقها ووصف ما تفعله بشاربها وهو بها خبير.
وفي وصف الخمر يقول كعب بن زهير الشاعر المخضرم:

مَا يَجْمَعُ الشُّوقُ إِنْ دَارَ بِنَاشِخَطِ ۞ ۞ ۞ وَمِثْلُهَا فِي تَدَانِي الدَّارِ مَهْجُورُ
نَشْفَى بِهَا وَهِيَ دَاءٌ لَوْ تُصَاقِبُنَا ۞ ۞ ۞ كَمَا شَتَفَى بِعِيَادِ الْخَمْرِ مَخْمُورُ

وهذا قريب من قول قيس بن الملوح صاحب بني عذرة حيث يقول وهو في العصر الأموي:
تداويت من ليلي بليلي من الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمير

وهذه الخنساء بنت عمرو بن الشريد تصف الخمر في رثاء أخيها فتقول:

لَقَدْ صَوَّتَ النَّاعِي بِفَقْدِ أَخِي النَّدَى ۞ ۞ ۞ نِدَاءً لَعَمْرِي لَا أَبْأَلُكَ يُسْمَعُ
فَقُمْتُ وَقَد كَادَتْ لِرَوْعِهِ هَلَاكِهِ ۞ ۞ ۞ وَفَزَعَتِي نَفْسِي مِنَ الْخَزْنِ تَتَّبِعُ
إِلَيْهِ كَأَنِّي حَوْبَةٌ وَتَحَشُّعًا ۞ ۞ ۞ أَخْوَالِ الْخَمْرِ يَسْمُوتَارَةٌ ثُمَّ يُصْرَعُ

وهذا وصف دقيق لصاحب الخمر إذا شربها من نشوته يكون كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

ونشربها ففتركتنا ملوكا ۞ ۞ ۞ وأسدا ما ينهنها اللقاء

لقد مررنا بنماذج من وصف الخمر عند الشعراء سواء من تشبيها بحالة نفسية معينة ناتجة عن حدث معين كما في رثاء الخنساء لأخويها رضي الله عنها، أو من حيث هي خمر تشرب حقيقة أو ترتبط بزمن غض حلو كان الزمان فيه مساعدا لوصفها، أو من حيث هي أمانة للفتوة عند الشعراء الجاهليين، أو من حيث هي أمانة للكرم وبذل المال عند الأثرياء الأجواد من فتيان العرب في الجاهلية وكهولهم فهم يذكرون لفضة قوم، والتي تدل علي التذكير.

نتابع مع حسان بن ثابت رضي الله عنه مقطعا من همزيتة يصف فيه الخمر، حيث قال نسا

إذا مألشربات ذكرن يوما ۞ ۞ ۞ فهن لطيب الراح الفداء

ففي هذا المقطع من قصيدته تعرض لوصف الخمر ووصفها فأحسن، وفضلها علي غيرها من الشراب من حيث التحديد، لأنها كانت قبل الاسلام كذلك، لكن موضوع وصفها بقي تقليدا كالوقوف علي الاطلال وذكر الأظعان والبين الخ... كما تعرض فيها لوصف محبوبته وطيب ثغرها وما الي ذلك مما هو غرض من أغراض الشعر المتعارف عليه في الجاهلية والاسلام.

خصائص الوصف في نص شعري

- تركيزه على الأبعاد الدالة للموصوف وإيحائها وتأثيرها في الواصف
- اتكاؤه على اللغة التصويرية في نقل صورة الموصوف وطبيعة الانفعال به إلى المتلقي لخلق عوالم دلالية محيطة بالموصوف، مثيرة ومؤثرة ومتشابهة ومتناسقة.
- اختيار التوليفات الصوتية والتركيبية والإيقاعية المتناغمة مع شبكات الدلالة التي ينسجها الواصف وكمية الانفعال التي يبثها داخلها.